# الدوافع السلوكية

# توطئة

إن مما زود الله به الإنسان (وكذا الحيوان) الدوافع السلوكية التى تحفزه لما يحتاج إليه من مهام فى حياته اليومية، وهذا عام فى الإنسان الحيوان، ويختص الإنسان بالدوافع التى تحضه على العمل الأخروى؛ لأنه مطلوب منه أن يعمل لكليهما معا.

والدوافع نعمة من الله، تعالى إن استغلها الإنسان الاستغلال الحسن ووظفها فيما خلقت لأجله، ولم ينحرف بها عن تلك الجادة، حيث تؤدى به إلى المهالك فى الحالة الأخيرة.

وليست الدوافع كلها للدنيا فقط، كما زعم بعض الباحثين من أنها لحب البقاء فحسب[1]، بل هى تتعدى ذلك إلى دوافع تدفع الإنسان لعمل الخير؛ رغبة فى ثواب الله فى الآخرة، وهى تدفع الإنسان ـ أحيانا إذا قوى إيمانه ـ لترك الدنيا، وليس حب البقاء فيها، كما يحدث كثيرا عند حب المجاهد للشهادة فى سبيل الله، كما حدث هذا فعليا، فى حادثة عمير بن الحمام عندما ألقى بالتمرات من يده ودخل يجاهد، وذلك عندما سمع النبى، صلى الله عليه وسلم، يحض المسلمين على القتال قائلا:

(والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقْتَلُ صابرا محتسبا،

(١) انظر: دراسات فى النفس الإنسانية، ص ١٦٢، محمد قطب.

مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام ـ وفى يده تمرات يأكلهن ـ بخ بخ!! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه يقاتل القوم حتى قتل)[1].

فما الدافع الذى دفع عميراً؟ هل يقال دفعه حب البقاء والتنعم بزينة الدنيا وزخرفها؟ كلا. إن دافعه هو حب لقاء الله ودخول الجنة.

وشاهد آخر على أنه ليس كل الدوافع لأجل حب البقاء فى الدنيا، حادث عوف بن الحارث بن عفراء، حيث قال:

(يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسه يده فى العدو حاسراً، فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل)[2].

**وتنقسم الدوافع إلي قسمين رئيسين:**

دوافع فطرية جِبِلِّية مغروسة فى غريزة الإنسان كما هى فى الحيوان، وأخرى مكتسبة يتعلمها الإنسان ويكتسبها من البيئة والمحيط الثقافى، وكلها يتداخل بعضها فى بعض فى كثير من الأحيان.

وسوف تدور دراستنا للقسمين بما يتلاءم مع هدف الكتاب، وهو ما يتعلق بكل ما يعين الدعاة على فهم المدعو والتعرف على سلوكياته بما يمكنه من دعوته إلى الحق على ضوء فهمه له، وفهم سنن الله فيه، ولن نخوض فى تفصيلات وتفسيرات علماء النفس وتفريعاتهم، بل وتهويماتهم حول الدوافع الإنسانية، ذلك الامتناع من قبلنا لأمرين:

الأول: أن معظم أو بعض تلك التفسيرات والتحليلات، عموميات نظرية

(١) و (٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ١٤٠.

لم تصل إلى حقيقة يعتد بها، كما أنها بعيدة فى مجملها عن المفهوم الإسلامى لدوافع النفس البشرية، وهى نتائج دراسات وأبحاث وتجارب قامت على غير المسلمين وفى بلاد لا يسودها الإسلام بتعاليمه وثقافته.

والثانى: أن منهجنا فى هذا الكتاب هو ـ كما ذكرنا ـ ما يعين الدعاة على الفهم العام للنفس البشرية لخدمة الدعوة، وليس المقصود التخصص الدقيق المستوعب، وعلى هذا المنهج قام علاج الكتاب لكل الموضوعات السابقة.

وسوف نبدأ بعرض مجمل للنوع الأول من الدوافع، عارضين معالجتها من خلال النصوص الإسلامية والمقصد العام للدين الإسلامى، غير متجاهلين للصالح من تجارب البشر فى هذا المجال.

# المبحث الأول
# الدوافع الجِبِلِّية

الدوافع الفطرية كثيرة ومتعددة ومتشعبة، ولكنا سوف نقتصر على المشهور منها لنذكِّر بفوائده ومضاره على الإنسان، وليتعرف الدعاة على كيفية الاستفادة من تلك الدوافع.

**المطلب الأول: الدوافع لطلب الرزق والعيش فى الحياة:**

وهذا الدافع يعتبر دافعا رئيسا ومتأصلا فى جِبِلَّةِ الإنسان، كما هو متأصل فى فطرة الحيوان وغريزته، وهو تلك الطاقة الكامنة فى المخلوق التى تحركه لكى يسعى فى الأرض؛ ليؤمن ما تبقى به حياته، ويسميه بعض علماء النفس، دافع حب البقاء أو حب الحياة، والحقيقة أن كل مخلوق لا يحب الموت، فى حالاته العادية، ولكن هل هو فعلا أقوى الدوافع على الإطلاق، كما فهم بعض علماء النفس؟ لعله من النظرة الأولى، إن لم تكن الْعَجْلَى، أن نقول: نعم، ولكن بعد التحقيق والتدقيق لا نجده هو أقواها البتة؛ ذلك لأن الدافع الأقوى على الإطلاق لا نجد له منافساً ولا يمكن أن يسبقه أو يغلبه دافع آخر؛ لأن قوته تدفع وتجذب كل دافع غيره، ويظل وحده منفردا، ولا يمكن أن يزاح أو يزاحم... هذا هو الدافع الأقوى، ولكن فى حالة دافع حب الحياة، نجد أن هذه القاعدة تنخرق وتنخرم، وذلك فى حالة

تقديم الموت على الحياة، كما مثَّلنا له من قبل فى مثال الشهداء فى الإسلام حين يفضل المجاهد الشهادة فى سبيل الله على الحياة الدنيا، يقدم على ذلك وهو فى حالة شعورية سوية وقوية[1]؛ ولذلك نقول: إن دافع الإيمان بالله ودافع حب الله عندما يتمكن من القلب يكون هو الأكبر والأقوى، وهو الذى لا يُنَافَسُ.

ولهذا نجد دائما أن أعداء الإسلام فى الحروب يخافون من المؤمنين الصادقين، وما إن يروا علاماتهم حتى يُوَلُّوا الأدبار، ومن علاماتهم التكبير والتهليل، والإقدام وحب لقاء العدو، وتمنى الموت طلباً للشهادة.

وقد يقول قائل: إن الذى يدفع الإنسان للموت ليس هو حب الشهادة وحده، بل فى حالات المنتحرين هروبا من الحياة عندما تضيق بهم أو تحدث لهم انفعالات شعورية قوية يقدمون فيها على التخلص من الحياة، ونقول: إن هذه حالة غير عادية، وصاحبها ليس بالإنسان السوى، وبالتالى فهى لا تصلح كقاعدة، وإنما هى حالات شعورية شاذة، ولا تحدث إلا فى حالات المرض واختلال العقل وفقدان التوازن النفسى، بدليل أن المؤمن الذى يقدم على الاستشهاد فى سبيل الله وهو صاحب الإيمان القوى، والسلوك السوى، لا يفعل ذلك أبدا، وكلما كان إيمان المرء قويا، كان أبعد عن الانتحار؛ لأن الإسلام نهى عنه نهيا قاطعا، فهو دافع عرضى ومرضى.

إن الإسلام قد وجه الدافع الغريزى لحب البقاء أفضل توجيه، حيث جعل الإنسان المسلم يعرف أن بقاءه ليس لمجرد أن يعيش ويأكل ويشرب فحسب، كالحيوانات العجماوات، وإنما يعى لبقائه هدفا وغاية، فهدفه هو تعمير الأرض بالخير كله، بما يفيده ويفيد البشرية جمعاء، تعميرها لكى تعبد البشرية ربها الذى فطرها ورزقها، وتعلى كلمته، وتسبح بحمده، وتقدس

(١) انظر: ص ٧٣، من هذا الكتاب.

له، يعرف المسلم أن فى بقائه خلافة الأرض، ويعرف أن هذه الخلافة هى دين جاء به المرسلون كلهم.

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ... ﴾[1].

وهو يعرف هذه الخلافة منذ أن نادى الله الملائكة وأعلمهم بها:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾[2].

(إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته فى الأرض، عاملا مهما فى نظام الكون، ملحوظا فى هذا النظام، فخلافته فى الأرض تتعلق بارتباطات شتى، مع السموات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشمس والكواكب... وكلها ملحوظ فى تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة. فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذى تخصصه له المذاهب المادية ولا تسمح له أن يتعداه؟!)[3].

إذن الهدف تعمير هذه الأرض حتى تعبد الله وتوحده كلها، وهذا منهج إسلامى جلى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[4].

إن هذه العبادة ملحوظة فى توجه المسلم كله، وفى عمله كله، فى حركاته كلها، فى سكونه كله، فهو عابد لربه فى كل لمحة ونفس وحركة وخطوة، فهو يتقن عمله عبادة لله، وهو يخلص فيه عبادة لله، وهو يروِّح عن نفسه

(١) سورة ص ـ من الآية (٢٦).
(٢) سورة البقرة ـ من الآية (٣٠).
(٣) فى ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠.
(٤) سورة الذاريات ـ الآيات (٥٦ ـ ٥٨).

وأهله وعياله عبادة لله.. وهو يقيم العدل بين الناس، ولو على نفسه وخاصته، عبادة لله، وهو يزرع ويحصد ويكدح ويجد، عبادة لله.. والمحصلة أنه كله لله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

أما الغاية فهى رضا الله والفوز بالجنة والنجاة من النار: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[2].

إن غريزة ودافع حب البقاء فى الإسلام ليست مطلقة، وليس الدافع له لذاته، بل حب البقاء فى الإسلام لهدف وغاية، على نحو ما ذكرنا، من معانى الخلافة فى الأرض وتعميرها، ومتطلبات التعمير، فالمسلم يعرف لماذا يريد أن يبقى فى هذه الدنيا، ويعرف لماذا يحب الدار الآخرة، ويعرف أن الإسلام نهى عن التشبث بالدنيا وحب البقاء فيها فى حالات معينة، ونهى عن تمنى الموت فى حالات معينة: (لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لابد فاعلا، فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى)[3].

وهذا أحد الصحابة يفلح الأرض ويعمرها على الرغم من زهده فى متاعها من جانبه الشخصى، ولكن معرفته بمقاصد الإسلام دفعته لهذه العمارة؛ ليبذر الخير، وليغرس الفضيلة لغيره، وليكون قدوة عملية تحتذى،

---

(١) سورة الأنعام ـ الآيتان (١٦٢ و ١٦٣).

(٢) سورة الكهف ـ الآيتان (١٠٧ و ١٠٨).

(٣) متفق عليه، البخارى كتاب المرضى، باب (١٩)، ومسلم كتاب الذكر، حديث (١٠) والترمذى كاب الجنائز (٣) والنسائى كتاب السهو (٦٢) والمسند ٣/ ١٠١.

وليعرف العالم كله أن للمسلم هدفا يسعى لتحقيقه، ويعمل من أجله لا يسير من غير هدى ولا بصيرة.

يقول قيس بن أبى حازم: دخلنا على خباب نعوده ـ وقد اكتوى سبع كيات ـ فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولـم تنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعا إلا التراب، ولولا أن النبى، صلى الله عليه وسلم، نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به، ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبنى حائطا له، فقال: إن المسلم ليؤجر فى كل شىء ينفقه إلا شيئا يجعله فى التراب[1].

هذا على مستوى المعنى الفردى، بالنسبة لدوافع حب البقاء، أما على المستوى الجماعى فقد قال، صلى الله عليه وسلم: (إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها)[2].

هكذا تكون الدوافع فى الإسلام، مقننة ومبرمجة ومنظمة، وعلى هذا المعيار فإن الدافع عند المسلم ليس بلا هدف ولا غاية، وليس هو لحب البقاء فى حد ذاته، وليس المسلم تائها لا يلوى على شىء، وليس المسلم يندفع وراء الشهوات وهى تقوده إلى السقوط... ولكن دوافعه تضبط بضوابط صارمة تكبح جماحها وتعدل مسيرها.

أما غير المسلم فدوافعه شهوانية شيطانية، فى عمومها، إلا ما بقى منها على الفطرة؛ ولهذا عندما يتحدث علماء النفس، فى علم النفس العام،

---

(١) البخارى كتاب المرضى باب (١٩) تمنى المريض الموت، الفتح ١٠/ ١٢٧.
(٢) رواه الترمذى، كتاب الفتن، باب (٧٨) حديث رقم (٢٢٦٦) ٤/ ٤٥٩.

فإنهم يعالجون الدوافع الإنسانية من هذا المنطلق، ويسيرون على هذا المفهوم، وبهذا المنهج غير الناهج، وهذا السبيل غير السالك، إلا من رحم ربى منهم.

هذا ما يَسَّرَه الله حول الدافع الأول من الدوافع الفطرية الجِبِلِّيَّة، وهو دافع رأسى، وأساس فى جملة الدوافع الأخرى، بل كلها تبع له، وهو مؤثر فيها؛ ولهذا سوف نمر على بعضها لمجرد التنويه بذكرها، ولا نقف عندها طويلا لانضوائها فى الدافع الأول المذكور أعلاه.

**المطلب الثانى: الدافع للطعام والشراب:**

جعل الله الإحساس بالجوع والعطش لدفع الإنسان والحيوان ليقوم بالبحث المبكر عن الطعام لسد تلك الحاجة الدافعة الحافزة، وهذه نعمة من نعم الله، فلولا هذا الإحساس الدافع لهلك المخلوق، ولما بقى منه شىء على وجه الأرض، ولخلت من الإنسان والدواب؛ لأن حاجة المخلوق إلى سد تلك الدوافع هى حاجة فيسيولوجية تتعلق بالحياة والبقاء على الحياة، هذا الإحساس بالجوع والعطش لم يعرف العلماء كنهه وسره، مثله مثل الأشياء الكثيرة فى هذا الكون التى لا يعرفون سرها، وإن اكتشفوا ظواهرها، وعرفوا مؤثراتها، وتعلموا استخداماتها، مثل الكهرباء وغيرها...

لقد أجريت عدة تجارب على الحيوانات استؤصلت فيها المعدة فوجدوا أن الإحساس بالجوع ما يزال موجودا، ثم أجريت تجربة أخرى قطع فيها العصب الحسى الذى ينقل الإحساس إلى الدماغ والعكس، فوجدوا الإحساس بالجوع والعطش لم يتأثر أيضا[1].

(١) انظر: أصول علم النفس ص ٧٦، د/ أحمد عزت راجح.

بل وجدوا الذى تستأصل معدته وأمعاؤه يجوع أسرع من صاحب المعدة السليمة، ولم يعرفوا السر بعد!!

ودوافع الطعام والشراب وغيرها، قد توقع صاحبها فى مهالك يهلك بها نفسه ومجتمعه إذا لم تهذب وتشذب فى الإنسان، فهى مثلها مثل دوافع الحيوان، الذى إذا لم يجد ما يسد به تلك الحاجات اندفع لسدها ولو دمرت وأهلكت غيره من المخلوقات.

ولكن الإسلام اعتنى بتلك الحاجات فى الإنسان وعمل على تلافى الجانب الضار فيها بعوامل كثيرة ومعالجات شتى، من أهمها بث الطمأنينة لدى الإنسان، وتذكيره بأن الرزق من عند الله، وأن الإنسان عليه السعى المشروع له، فحثه على الضرب فى الأرض والاجتهاد فى طلب الرزق الحلال، وأن الله يسهل له ذلك كله مادام يسعى له سعيا مشروعا، فقال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

ومن الأسس والضوابط للطمأنينة لجلب الرزق التى تكبح جماح الدوافع الناشزة لطلب الرزق بالطرق غير المشروعة ـ مراقبة الله وتقواه، فهى مصدر من مصادر الطمأنينة للرزق: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[2].

وقد قال، صلى الله عليه وسلم: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[3].

(١) سورة العنكبوت ـ الآية (٦٠).

(٢) سورة الطلاق ـ آخر الآية (٢) ثم كل الآية (٣).

(٣) رواه الترمذى فى كتاب الزهد باب (٣٣) فى التوكل على الله حديث رقم (٤٤٢٣) ٤/ ٤٩٥ ورواه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٣٠. كما أورده ابن ماجه فى سننه كتاب الزهد برقم (١٤).

كما أن الإسلام عالج دوافع الجوع - بالإضافة إلى ما سبق - بمعالجات عملية ترويضية هى بمثابة الضوابط والكوابح التى تحول دون جنوح هذه الدوافع، وتحد من غلوائها، ذلك هو الصوم الذى يستمر إلزاما كل عام لمدة شهر كامل متواليا دون انقطاع إلا لعذر، ثم حث على صوم التطوع فى فترات متقاربة ومتباعدة، منها ما هو فى الأسبوع مرتين، كصوم يومى الاثنين والخميس، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر (صوم الأيام البيض) وصوم تاسوعاء وعاشوراء، وصوم يوم عرفة لغير الحاج... كل ذلك إضافة إلى صوم النذور والكفارات... كلها تعمل على تهذيب دافع الجوع ووضعه فى مساره الصحيح السليم الذى يفيد الإنسان فى حفظ جسده بما يحفظ عليه حياته ويجعله شخصا سويا فاعلا فى مجتمعه، هذا كله إضافة إلى حث الإسلام على التقليل من كميات الطعام التى يأكلها الإنسان، وأن يكون أكله معتدلا، لا إسراف فيه، كما وصفه له النبى، صلى الله عليه وسلم، فى الوصفة الطبية التالية:

(ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لِنَفَسِه)[1].

**المطلب الثالث: الدافع لجمع المال:**

وما قيل فى الدافع للطعام يقال فى الدافع لجمع المال؛ لأن المال لأجل جلب الطعام وما يقوم به الإنسان، حيث جعل الإسلام فيه من الأمور ما تحول بين تكديس الإنسان له وتقلل من شرهه نحوه وإفراطه فى حبه، ففرض فيه حقا معلوما، وجعل عليه ثوابا، وحقا مندوبا إخراجه، ووعد عليه بحوافز تدفع الإنسان لأن يجعله فيما وضع له، بل وجعل الإسلام المال فى

(١) رواه الترمذى فى كتاب الزهد باب (٤٧) ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٤٠/ ٥١٠ ورواه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة باب (٥٠).

أصله وأساسه ملكاً لله، تعالى، والإنسان مستخلفاً فيه، قال، تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[1].

فالإنسان عندما يعرف ويوقن أن المال لله، وهو مستخلف فيه وقائم على تنميته، وله نصيب منه يتقوم به على الحياة ويستعين به، وعليه حق فيه لغيره من خلق الله ـ عندما يعرف ذلك، فإن الدافع لجمعه وتكديسه، بل وتقديسه يقل عنده ويضعه فى أماكنه المخصصة له، ويجمعه من طرقه المشروعة، ويؤدى فيه حقه المشروع، وهذا ما لم يصل إليه علم النفس العام، ولن يستطيع ذلك نظام ولا قانون غير نظام الإسلام الربانى.

ولقد سأل الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوما سؤالا اختياريا قصد به طمأنتهم وتسكين نفوسهم والحد من الدافع لجمع الثروة من غير طرقها المشروعة، ومعالجة للأمر قبل أن يقع، فقال لهم:

(أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟! قالوا يارسول الله، مامنا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر)[2].

**المطلب الرابع: الدافع الجنسى:**

الميل الذى يدفع الإنسان إلى قضاء وطره من الجنس الآخر هو دافع غريزى فى كل المخلوقات جعله الله كذلك لحفظ النوع من تلك المخلوقات، وهو فى الإنسان منضبط بضوابط أخلاقية وتحكمه أعراف وتقاليد تحد من انطلاقه وتقلل من هيجانه، حتى لا ينحرف بالسلوك الإنسانى إلى السلوك الحيوانى.

(١) سورة الحديد ـ الآية (٧).

(٢) رواه البخارى كتاب الرقاق، باب (١٢) ما قدم من ماله فهو له، ١١/ ٢٦٠، والمسند، ١/ ٣٨٢.

ومع ذلك فهذا الدافع يجمح ويجنح فى كثير من الأحيان خارج نطاق الضوابط البشرية الخاصة بالإنسان، وهو كثير الجنوح فى البلدان التى يقل فيها القيد والدافع والوازع الدينى، وهذا ظاهر فى بلدان أوروبا وعامة بلاد الغرب النصرانى أو الشرق الذى كان يتخذ من الشيوعية (أيديولوجية) منهجية يسير عليها، ويؤطر نظمه الأخلاقية بأطرها. والسبب كله البعد عن تعاليم الدين والتفريط فى التمسك بها، فإنها على تحريفها نجد فيها فى هذه الجوانب بعض بقايا الخلق السليم، وإن كساه ضباب كثيف، وغشيه غبار معتم.

والمدارس النفسية الغربية وغيرها، التى عالجت موضوع الدافع الشهوانى الجنسى لم تستطع أن تصل إلى شىء يمكن أن يسير به إلى الأفضل، بل زادت الطين بِلَّة، خاصة المدرسة الفرويدية، التى أطلقت العنان وفتحت الباب على مصراعيه للدافع الجنسى، وجعلته مفتاح كنوز النفس البشرية، كما جعلت كل مصائب النفس الإنسانية يمكن أن تعالج بإشباع هذه الغريزة، وعاملت الإنسان معاملة الحيوان فى إرواء شهواته ونزواته دون قيود ولا ضوابط من الأخلاق، حتى تساوى عندها الإنسان والحيوان.

ولقد جاء فرويد بمبدأ النمو الحر للطاقة الجنسية..[1].

وطفق يفسر كل التداخلات (السايكولوجية) الإنسانية تفسيرا مرتبطا بالجنس، وزعم أن السلوك البشرى لا يستقيم حتى تكتفى هذه الغريزة وتشبع نهمها من الآخر!! وهو مخطئ فى تفسيره هذا غاية الخطأ؛ إذ حط من قيمة الإنسان، وألغى الفارق بينه وبين الحيوان، وشطب دور العقل، وأوقف عمل الفكر الإنسانى جملة، فكان من المخطئين خطأ مبينا، دحضه الذين عاصروه، وخاصة من جاء بعده ممن هم على مثل تخصصه وأفضل.

(١) انظر: دراسات فى النفس الإنسانية ص ١٧٤، محمد قطب.

أما أمر هذا الدافع فى الإسلام فهو شىء آخر، حيث اعترف بوجوده وتأصله فى فطرة الإنسان، بل هو جزء من كيانه، ولا يمكن بأى نوع من أنواع الضغط الخارجى إيجاد إنسان سوى لا يحس بهذا الدافع الجنسى، ولكن الإحساس لا يعنى التنفيذ، خاصة فى غير المحل اللائق، حيث إن هذا الإحساس يهذب فيتسامى ويرتفع[1]، حتى يكون الفارق بين غريزة الإنسان وغريزة الحيوان فى الشهوة الجنسية.

لقد أوجد الإسلام طرقا وأساليب عديدة لضبط وتعديل وتهذيب هذا الدافع القوى فى الإنسان، إنه قوى حقا حيث يأتى بعد دافع الجوع والعطش مباشرة، أوجد له الإسلام سبلا تجعله يسير فى الطريق الصحيح له، لإيجاد الروابط والعلائق بين الطرف الآخر؛ لتستقر حال البشر، وليستفيدوا من حياتهم، وليحفظوا نوعهم وسلالاتهم، وليجدوا الطمأنينة والسكينة، التى لا تصلح الحياة السوية بدونها، فكان إعلان الإسلام:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2].

وذكر هدفا آخر من أهداف هذا الدافع الجنسى، وهو ما ذكرناه من السكينة والطمأنينة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

وكما أن من أهداف قضاء الشهوة الجنسية هذه المودة والسكن والهدوء

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٧٥.
(٢) سورة النساء ـ الآية (١).
(٣) سورة الروم ـ الآية (٢١).

الذى يذهب كدر النفس ويجلب صفاءها، فإنه كذلك من أهدافها النسل والذرية التى تتلوها ذرية أخرى، حتى يكون لهذا الإنسان ذكر بعد ذكر ما استمرت سلسلة التناسل ومضت دورته التى لا تنقطع حتى يوم البعث والنشور، فهذا دافع قوى وحافز جيد، وله معنى فى الحياة:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[1].

إن الدافع للشهوة الجنسية قوى وجامع وشامل فى جل البشر، ولو ترك وشأنه لدفع بالإنسان إلى خارج نطاق الإنسانية؛ ولهذا فقد جعل له الإسلام حواجز وضوابط عديدة تحول بينه وبين الطغيان، منها ما ذكرنا، ومنها أنه أمر أتْبَاعَه باستعمال وسائل وأساليب تفيدهم فى هذا الصدد، مثل أمره بِغَضِّ البصر وعدم إتباع النظرة الأخرى؛ حتى لا تثور كوامن الشهوة فتدفع صاحبها قسرا، فأوصى الله رسوله بقوله:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[2].

هذا عام فى الرجال والنساء؛ لأن كل واحد إذا أتبع النظرة النظرة فإن ذلك كفيل بتحريك دافع الشهوة وزاد النساء بعدم إظهار الزينة وعدم التبرج بأنواعه فى اللباس أو الحركات؛ خشية أن يدفع ذلك السلوك من المرأة حماس

---

(١) سورة النحل ـ الآية (٧٢).

(٢) سورة النور ـ الآية (٣٠) وصدر الآية (٣١).

الرجال فيؤذوهن. ولقد حدث كثير من حوادث الاعتداء على النساء بسبب التبرج، ووسائل الأعلام طافحة بهذا، بل منها ما شهدناه بأنفسنا، من اعتداء على النساء فى الحدائق العامة والطرقات الجامعة... كل ذلك بسبب إظهار المرأة لمفاتنها وأماكن الإثارة منها، فلا يقوى الرجل ـ وخاصة الشاب ـ على رد اندفاع شهوته وكبح جماحها، فَأَمْرُ الإسلام بحجاب المرأة، وغض البصر للطرفين ـ يساعد على دفع شَرِّه.

ومن الضوابط التى وضعها الإسلام لتلك الدوافع منع الاختلاط بين الرجال والنساء، وخاصة فى الأماكن التى يقل فيها الوازع الدينى والضميرى وتطغى فيها العقلية الجماهرية الغوغائية، مثل أماكن اللهو والاحتفالات والطرب، وأماكن العمل التى تختلط فيها الأجناس والمدن الكبيرة...

وكذلك منع الإسلام أن يخلو الرجل بالمرأة وليس معها أحد، وحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من ذلك بقوله:

(لا يخلو رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)[1].

وقال، صلى الله عليه وسلم، فى النهى عن الدخول على النساء والخلوة بهن وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فساد ودمار للأسر والمجتمع، على حد سواء، لا سيما ممن يتساهل الناس فى دخولهم على النساء مثل أقارب الزوجين، حيث تكون الشبهة بعيدة، فينتهز ذلك أصحاب القلوب المريضة والنفوس الخسيسة مع حيل الشيطان وإغوائه المستمر لبنى آدم، فقال، صلى الله عليه وسلم، محذرا ومنذرا:

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب الرضاع، باب (١٦) ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات ٣/ ٤٧٤. ورواه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٢٢٢.

(إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت)[1].

ومن تلك المعالجات لضبط الدافع الجنسى الشهوانى، أن الإسلام حث الشباب على الزواج المبكر؛ تحصينا لهم وحفظا وتعديلا وتهذيبا لدافع تلك الغريزة قبل أن تشب عن الطوق ويصعب السيطرة عليها، فقال، رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

(يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[2].

والصوم من أفضل ضوابط تلك الدوافع الكاسر لعنفوانها الذى يتولد فى أساسه من كثرة الأكل والشرب، فإذا قل الأكل قل الدافع للشهوة الجنسية، إضافة إلى ما فى الصوم من معانى مراقبة الله وغرس التقوى فى القلب وصرفه عن التفكر فى تلك الأمور المحرمة.

تلك الضوابط التى ذكرناها، وغيرها، كثير لا نجده لدى علماء علم النفس العام؛ حيث تخلو كتبهم حتى من أى ذكر لله فيها، شأنها شأن كل العلوم الأخرى التى أبعدت عن الله تماما بسبب رد فعل الكنيسة قديما، فنشأت تلك العلوم والمعارف بمعزل عن الدين ورقابته وتحصينه؛ فلذلك جاءت جافة خالية من السمو الروحى الذى هو أساس كبح جماح تلك الدوافع وصدها عن الانحراف.

(١) البخارى: كتاب النكاح باب (١١١)، لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة، الفتح ٩/ ٣٣٠. والترمذى: كتاب الرضاع باب (١٦) ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات ٣/ ٤٧٤.

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب النكاح باب (٢) قول النبى، صلى الله عليه وسلم: من استطاع الباءة فليتزوج، الفتح ٩/ ١٠٦، ومسلم: كتاب النكاح باب (١ و ٢) والمسند للإمام أحمد ١/ ٣٧٨، وكذا رواه بقية أصحاب السنن.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يعالج مثل هذا النوع من الدوافع الشهوانية الجامحة معالجة لم ترق إليها علوم النفس حديثها وقديمها؛ لأن معالجاته كانت تصيب موطنها تمام الإصابة؛ ذلك لأنها نابعة من أصول الإسلام دين خالق النفس وما حوت، يظهر ذلك فى قصة الشاب الذى جاءه مندفعا بحماسة وشهوة الشباب يطلب منه أن يسمح له بالزنى، فلم يعنفه، صلى الله عليه وسلم، ولم ينهره ولم يغلظ عليه، أو يحبسه أو يوبخه... كل ذلك كان يمكن أن يحدث من غيره، ولكن حاوره حواراً هادئا صادقا لم يلبث أن رجع الشاب بعده إلى رشده، وتوارى دافعه الشهوانى، فدار بينهما الحوار الموضوعى التالى:

عن أبى أمامة أن فتى شابا أتى النبى، صلى الله عليه وسلم،

فقال: يارسول الله، ائذن لى بالزنى!! فأقبل القوم عليه فزجروه.

وقالوا: مه، مه!!

فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال، فجلس.

قال: أتحبه لابنتك؟!

قال: لا، جعلنى الله فداءك.

قال: والناس لا يحبونه لبناتهم!

قال: أفتحبه لأختك؟!

قال: لا والله، جعلنى الله فداءك!

قال: والناس لا يحبونه لأخواتهم!

قال: أفتحبه لعمتك؟!

قال: لا والله، جعلنى الله فداءك!

قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم!

قال: أفتحبه لخالتك؟!

قال: لا والله، جعلنى الله فداءك!

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم!

قال: فوضع يده عليه،

وقال: اللهم اغفر ذنبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء)[1].

وهكذا يعالج الطبيب النفسانى الداعية المسلم، يعالج دوافع المدعوين بكل ما يمكن أن يزيل عنهم الخلجات والخلخلات التى تدفعهم لما يدمر أنفسهم ومجتمعهم.

وهكذا منهج النبوة الذى هو منهج الدعاة إلى الله على بصيرة، فى الحوار والإرشاد والتوجيه، حجةومنطقا ممزوجا بكل ما يمكن أن يثير فيه النخوة والهمة والشهامة، ويبعث كوامن الإيمان، ويبذر فيه العفة...

تلك كانت بعض ضوابط الإسلام لهذه الدوافع، وهى التى لا نجد لها مثيلا ولا شبيها فى علم النفس العام، يضارع قوتها أو يضاهى دقتها فى وضع تلك الدوافع فى موضعها الصحيح.

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل، فى مسنده، ٥/٢٥٦.

# المبحث الثاني
# الدوافع المكتسبة

هذا العنوان الذى صدرنا به هذا المبحث، وهو الدوافع المكتسبة، ليس على إطلاقه من كل النواحى؛ إذ ليس ثَمَّ دوافع مكتسبة اكتسابا مستقلا تماما، وإنما نجد كثيرا منها ـ إن لم تكن كلها ـ تختلط وتتأثر بالدوافع الغريزية، ذلك مرده إلى أن الإنسان ـ كما ذكرنا ـ وحدة واحدة تتأثر أحواله ببعضها البعض؛ ولهذا فلا نجد دوافع فطرية خالصة، ولا دوافع مكتسبة من البيئة خالصة، حيث كل واحدة تؤثر فى الأخرى سلبا وإيجابا.

وهذه حكمة الله فى هذا المخلوق المتفرد ـ الإنسان ـ حيث كل شىء فيه ينم عن الازدواج حتى خلقه الأول مزدوج من الطين، أى التراب، ومن نفخة الله، تعالى. وهذه الدوافع إما أن تكون مكتسبة من البيئة بكل أنواعها، البيئة العملية أو الأسرية أو التعليمية أو بيئة المحيط الثقافى الاطلاعى أو التخصصى، أو أن يكون الدافع فى فطرة الإنسان ثم يُنَمَّى ويُحَوَّر حسب مكتسبات البيئة بأنواعها، وسوف نتعرض لبعض تلك الأنواع من الدوافع بشىء من الشرح والتحليل من الوجهة الإسلامية خاصة.

**المطلب الأول: دوافع حب الظهور:**

المقصود بهذه الدوافع المركبة هو ذلك الدافع الذى يقوم على الحسد

والمنافسة والرغبة فى الصعود على كل سلم، ولو لم يكن فى استطاعته أو مقدرته، ولو لم يوهب له هذا النوع، ومع ذلك نجد هذا النوع من الناس متشبثا به عالقا برباه، وهذا ـ فى الحقيقة ـ نوع من المرض النفسى ربما كان الدافع وراءه عدة أسباب لم تكن ظاهرة، بل ربما لم تكن ظاهرة أو مفهومة حتى للشخص نفسه، وهذه تكون من الدوافع الكامنة فى اللاشعور الإنسانى، ولكنها تظهر عند مثير معين، فيجد الإنسان نفسه يندفع نحو شىء بعينه أو رأى أو فكر أو عقيدة بعينها، يندفع للمعارضة من غير روية أو سبب وجيه، ويظل يحاجج ويلح فى الخصومة حتى إذا سئل: لماذا تعارض هذا أو ذاك ـ خار ولم يستطع أن يقول شيئا، ذلك لأنه لم يكن له هدف، ولم يخطط للمعارضة، ولكن بدافع مستكن فى أعماق النفس غائر فى أزمنتها، مثل البركان الخامد من سنين عددا، ولكنه يغلى من داخل الأرض، حتى إذا وجد متنفسا فى الأرض ثار وخرج يلقى بحممه يقذف بها على من جاوره!!

هذا النوع من الدوافع يمكن للداعية معالجته وطبه لو أنه استطاع أن يجعله ساكنا، حتى إذا توالى سكونه إلى أمد ربما ينتهى تماما، ولعل علاجه يحتاج إلى طول نفس، وطول زمن، وذلك لتأصله وعدم وضوحه.

والسبب الرئيس لهذا الدافع هو المنافسة على منصب أو مكانة اجتماعية أو سياسية يرى الشخص أن الداعية أخذها منه، ولو بطريق غير مباشر، فينشأ عند المدعو عقدة تؤدى إلى الحقد والضغينة على الداعى، فيبدأ الطرف الآخر بهذا الدافع الذى ربما كان وهميا أو حقيقيا، يبدأ يكيد للداعى، ويدس له الدسائس، ويلفق حوله الأكاذيب لكى يوقعه فى حرج مع المدعوين، ويتصيد السقطات والهفوات، ويكبِّر الصغائر، ويحرِّم المباحات... كل ذلك لأجل النيل من الداعى، الذى يرى أنه سلبه حقا كان له.

مثال هذا النوع ما حدث لعبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق، الذى

كان يرجو أن يكون ملكا على أهل يثرب قبل هجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها، وعندما عرف الناس نور الإسلام، وخالطت بشاشته قلوبهم تحولوا عن ابن سلول إلى الإسلام، فنقم من ذلك وغار، ولما لم يجد مسوغا للمعارضة العلنية دلف إلى النفاق، فأخفى معارضته وجعلها فى داخل سراديب نفسه المظلمة، وأعلن تأييده للدعوة والداعى، ولكن دوافعه الداخلية كانت تفلت وتظهر إلى السطح من حين لآخر، إضافة إلى كشف القرآن له وفضحه..

يقول سعد بن عبادة، معللا معارضة ابن سلول للدعوة، وملطفا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

(يا رسول الله، والله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجَهُ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا)[1].

وقد يشتد الدافع ويقوى حتى يتحول إلى كره شديد للداعى، فيغدو صاحبه لا يتحمل رؤية الداعى، ولا يطيق نجاحاته فى عمله ودعوته، ويسوؤه ذلك، فيندفع للمعارضة الكلامية والكيدية.

ولقد كان زعماء قريش يتبعون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف بالبلدان وموارد المياه وتجمعات القبائل يدعوهم إلى الله ويخبرهم ببعثته، يتبعونه محذرين ومنذرين ومكذبين دعوته، وكذا كان يفعل عبدالله بن أبى بن سلول، حيث كان لا يتحمل أن يسمع كلام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيقاطعه مسببا له الإحراج، حسب زعمه وظنه، وفاته أن الداعى لا يتحرج ولا يستحى من القيام بالدعوة؛ لأنه لم يدع لباطل يستحق الاستحياء، وهو يحمل مشاعل الهدى ومصابيح الدجا التى تنير الدياجير الحالكة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ١١٦.

جاء فى حديث أسامة بن زيد ـ رضى الله عنه ـ عندما كان يردفه الرسول، صلى الله عليه وسلم، خلفه على حمار له؛ ليزور سعد بن عبادة، فكان أن مر بعبد الله بن أبى بن سلول، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله، صلى الله عليه وسلم تذمم[1] من أن يجازوه حتى ينزل، فنزل فسلم، ثم جلس قليلا، فتلا القرآن ودعا إلى الله، عز وجل، وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر، قال: وهو زام[2] لا يتكلم، حتى إذا فرغ الرسول، صلى الله عليه وسلم، من مقالته، قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقا فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لا يأتك فلا تغته[3] به، ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه، قال: فقال عبدالله بن رواحة ـ فى رجال كانوا عنده من المسلمين ـ بلى، فاغشنا به وَأْتِنَا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو ـ والله ـ مما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له...[4].

فقال ابن أبى بن سلول، متحسرا ومتأسفا ومتندما، على مكانته التى يرى أنها سلبت منه، وعلى تحول قومه عنه إلى دين الله الحق، الإسلام، قال شعرا:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل  تذل ويصرعك الذين تصارع

وهل ينهض البازى بغير جناحه  وإن جُذَّ يوما ريشه فهو واقع[5]

وهناك دافع الحسد والغيرة الذى يشابه الأول فى أهدافه ونتائجه على الدعوة والداعى، وفى دفعه صاحبه إلى مناكفة ومناهضة الداعى، ولكن هذا

---

(١) تذمم: استحيا.

(٢) زام: رافعا أنفه تكبرا.

(٣) لاتغته: لا تثقل عليه.

(٤) و (٥) المرجع السابق، ص ١١٥.

الدافع ربما كان صاحبه ليس أهلا للمكانة التى يصبو إليها، أو ربما لم تكن له مكانة يسعى لتحقيقها، ولكن لتمكن داء الحسد والغيرة من نفسه، فهو يعارض ويلح فى المعارضة، أو ربما كان مدفوعا من قومه وعشيرته أو حتى بعاداتهم وأعرافهم، يذوذ عنها متشبثا بها متعلقا بخيوطها الواهنة، راغبا فى عدم تبديلها، ولو كانت معيبة مهينة، وهذا يظهر جليا فى معارضة قريش ـ فى جملتها ـ للدعوة الإسلامية فى بدايتها، وهو أشبه بمعارضة أصحاب الملل المنحرفة الباطلة للإسلام حتى اليوم، أو أصحاب المذاهب العلمانية والإلحادية للإسلام مهما كان الداعى له، فهم يطعنون فيه ويعيبونه، ويلفقون له التهم كذبا وزورا؛ ليصدوا عن سبيل الله، ويختلقون له الأوصاف المنفرة أو ينعتونه بأوصاف معينة، ثم يلبسونها بأوصاف ذميمة، كما فى إلباسهم الإسلام فى الوقت الراهن بمصطلح (الأصولية) الذى يعنى ـ فى مفهومهم الغربى كل ما هو ذميم ومتخلف يذكرهم بعهود الكنيسة حيث احتكار المعرفة والحجر الفكرى والتسلط على ذلك كله باسم كنيسة الرب!!

يفسر هذا المضمون ما قاله أبو جهل للأخنس بن شريق عندما ذهب إليه يسأله فيما سمعاه من القرآن، فقال له الأخنس:

يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ـ أبو جهل:

ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كَفَرَسَىْ رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء!! فمتى ندرك مثل هذا؟! والله، لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه..)[1].

فواضح الدافع للمعارضة من هذا النص، الذى يخلو من الحجة المقنعة أو

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢١٩.

الرأى الصائب، واضح منه دافع الحسد على هذا الخير الذى جاء لبنى عبد مناف بالشرف والفضل؛ حيث بعث الله منهم نبيا، وكلام أبى جهل هذا بأنهم لن يدركوا هذا الذى جاء، وهو النبوة هو حق، وإن أريد به باطل؛ ذلك لأنه لا نبى بعد محمد، صلى الله عليه وسلم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن الحسد يعمى عن الحق ويصد عن اتباعه، وهو ما نَوَّهَ به القرآن الكريم عن معرفتهم ويقينهم بصدق محمد ونبوته، بل وبختمه للرسالات، بدليل نص كلام أبى جهل (فمتى ندرك مثل هذه) وهو يقصد مثل هذه المكانة التى هى شرف الوحى السماوى، ولكن دافع الحسد يجعلهم يكذبون الحق الأبلج الواضح الذى لا يستطيعون إنكاره فى داخل أنفسهم:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1].

ودائما يجحد هؤلاء بالآيات البينات والحجج القاطعات الدامغات، على الرغم من وضوحها وجلائها، وعلى الرغم من إقرارهم بها فى داخل أنفسهم، ولكنه الحقد الدفين الأعمى، يمنعهم من قول الحق وإظهاره لأنه ثقيل عليهم، وهكذا يفعل أعداء الإسلام فى كل وقت وزمان ومكان، يوقنون بالحق فى أنفسهم ويغطونه بزبد أكاذيبهم وتضليل إعلامهم:

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

فعلى الداعى أن يتخطى هؤلاء كما تخطاهم القرآن، وأن يدحض أكاذيبهم بالحق العملى الذى ينبلج كفلق الصبح، فيغطى ليلهم، ويستر

(١) سورة الأنعام ـ الآية (٣٣).
(٢) سورة النمل ـ الآيتان (١٣ و ١٤).

باطلهم عن أعين المدعوين، فلا يرون إلا بياض نهار الحق وسطوعه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[1]، ولا يوهن عزمه كثرة باطلهم، فإنه غثاء سوف يحرقه تيار الحق، ولن يصمد أمامه، ولا يسكته ضجيج وضوضاء إعلامهم الذى ينعق بالخرافات والأباطيل، وليمض على الحق ولا يخاف إلا الله الذى هو ناصره ومعينه.

**المطلب الثانى: الدافع الفكرى (الأيديولوجى):**

ومن تلك الدوافع الدافع الفكرى (الأيديولوجى)، فقد يكون المعارض يرى أنه يحمل فكرا أفضل مما عند الداعى، ويريد أن يقنع الناس به، ويسبب له الداعى ربكة وتذبذبا فى هذا الفكر، بالحق الذى معه، وبإقبال الناس عليه أو بتعرية فكر هذا المعارض، فيدفعه ذلك إلى المعارضة، وكان هذا يحدث كثيرا أيام عنفوان (الأيديولوجية) الشيوعية وميض برقها الكاذب الذى لا يعقبه مطر ولا يأتى بخير، حتى انكشف أمرها، وافتضح كذبها، فهوت على عروشها، وانخلعت من جذورها، فكانوا فى كثير من الأحيان يتحاشون سب الشعارات الإسلامية علانية، حتى اضطروا فى بعض الأحيان أن يزعموا أن الشيوعية لا تعارض الإسلام، وإنما هى منهج اقتصادى، وأن التدين فطرة فى الإنسان، وكان كثير منهم، وخاصة فى البلاد الإسلامية، يقول إنه مسلم، وربما تظاهر بالصلاة أمام الناس حتى يوهمهم بأنه مسلم وأن الشيوعية لا تتعارض مع الإسلام.

ومنذ حوالى منتصف القرن العشرين بدأ تيار الفكر الإسلامى يقوى، وغدا الشباب ينخرطون فى التنظيمات الشبابية الإسلامية، حتى نما هذا التيار الإسلامى فى الجامعات والمدارس الثانوية، ثم بدأ ينتشر فى الأماكن التى كانت تُعَدُّ من معاقل وأعشاش الأيديولوجية الشيوعية، مثل التنظيمات

(١) سورة الأنبياء ـ من الآية (١٨).

العمالية والمهنية، وقطاعات الطبقات المثقفة خاصة، والمتعلمة عامة... ثم تمدد هذا المولود الشرعى حتى عم جميع قطاعات الشعوب الإسلامية، خاصة بعد خروج المستعمر من البلاد الإسلامية، وما إن أهلت تباشير العقد الماضى حتى انتظمت شعارات الصحوة الإسلامية كافة قطاعات المجتمعات الإسلامية، حتى فى البلاد التى تجذر فيها النبت الشيطانى الشيوعى مثل بلاد آسيا الوسطى وأوربا الشرقية، بالرغم من الحجر الكامل التام على كل ما يتصل بالدين عامة، والدين الإسلامى على وجه الخصوص، فمارس الناس شعائر وتعاليم دينهم الإسلامى تحت السراديب المظلمة والغرف المغلقة، نذكر شاهدا على ذلك من أهلها، وهو إمام جامع (انديجان) الواقعة فى جمهورية أزبكستان التى كانت تحت الاحتلال السوفيتى، وقد أجرت معه صحيفة (المسلمون) مقابلة، والشيخ اسمه عبد الولى عاشور، نقتطف أجزاء من تلك المقابلة شاهداً على مجاهدات رجال الصحوة الإسلامية التى أسهمت فى زعزعة أركان الشيوعية. يسأله موفد (المسلمون) قائلاً:

كيف استطعت أنت ورفاقك الإبقاء على الشخصية الإسلامية فى ظل الكابوس الشيوعى؟ فيجيب: (إننا درسنا وتعلمنا فيما يسمى بالحجرات، حيث خصص بعض الغيورين على الإسلام جزءاً من سكنه لتدريس أبناء المسلمين، وكان الشيخ يحضر لهذا المنزل سرا، ويعلم الطلاب لمدة ست سنوات، يبقى خلالها الطلاب، فى تلك الغرف الخالية من النوافذ ثلاثة أشهر لا يخرجون؛ لكيلا يعلم بهم أحد... ويتم التدريس ليلا، بعد صلاة العشاء، ويستمر حتى صلاة الفجر...).

ويسأله موفد (المسلمون): كيف حصلتم على الكتب؟ فيقول:

(الحقيقة أغلب الكتب انتهى بها الحال، إما حرقا أو غرقا فى عهد الشيوعية، وبعض المخلصين احتفظ بكتبه داخل الجدران!! حيث كان يبنى

عليها حتى انتهت الظروف العصيبة أيام حكم ستالين، ثم ورث أبناؤهم هذه الكتب، ثم تداولها بعض العلماء فطبعت، بفضل الله، فى المطابع الشيوعية بطريقة معينة، وبعض الكتب نسخ بخط اليد، وبعضها صور وهكذا...).

وبعض الكتب تسربت إليهم بعد الصحوة الإسلامية وانتشارها فى العالم الإسلامى، يقول الشيخ عاشور، عندما سئل: هل جاءتهم كتب من الخارج؟

(بدأ تسريب الكتب منذ عشرين عاما عن طريق بعض الشباب العرب، فدرست لطلابى كتاب الإيمان للشيخ عبدالمجيد الزندانى، ولاقى هذا الكتاب قبولا، والحمد لله...)[1].

وهكذا يصمد الحق أمام الباطل حتى يقضى عليه، بإذن الله، تعالى، مهما كانت قوة اندفاعه.

وهناك من الدوافع ما هو أقل من تلك، وهو دافع الاختلاف على المقاصد العامة والوصول إلى الأهداف، والاختلاف فى الطرق والوسائل والأساليب التى ينبغى اتخاذها والسبل التى يلزم انتهاجها. وهذه الدوافع من هذا النوع ليست من الخطورة بمكان حيث لا يمكن احتواؤها، بل العكس تماما إذا وجدت الداعى الحصين الذى يصبر عليها ويطول نفسه فى معالجتها؛ ذلك لأن الدافع الخلافى هنا ليس فكريا ولا عقديا، وإنما هو فى الطريقة والكيفية التى تصل بها الدعوة إلى الناس، وهذا شأن معظم الجماعات الإسلامية الموجودة على الساحة الإسلامية حاليا...)[2].

---

(١) جريدة (المسلمون) العدد (٣٩١) ٢ من صفر ١٤١٣ هـ - ٣١/٧/١٩٩٢ م.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر كتابنا: منهج تقديم الدعوة.